

بقايا الفصحاح

أعني بقايا الفصحاح طائفة من الألفاظ التي استفاضت في العامة وأصلها فصيح ،
الا انها مع تعاقب السنين عليها تباعد عنها فربق من الكتاب فذهب وهمنا الى انها
عامة ، ولهذا الألفاظ على ما أعتقد قوة غريبة في حياتها ، فقد خلفها الماضي وتداولتها
العامة ، فلم تُفقد شيئاً من حياتها ، على الرغم من اختلاطها بألفاظ أعجمية انحدرت
اليها من الأمم التي انبسط سلطانها على هذه البلاد او على بلاد العرب عامة ، ففي كل
بلد من بلاد العرب طوائف من هذه الألفاظ ، ولكل طائفة منها حياة قوية ،
ولقد عُنت بها من سنين فاجتمع لي مقدار منها أرجع اليه من حين الى آخر
فتطوي لي أحقاب بعيدة ، فأرى في تضاعيف هذه الالفاظ حياة بلدٍ بأجمعه ،
اذ أنها تفصح لي عن ناحية من نواحي الاجتماع او الاقتصاد او عن معنى من المعاني
النفسية أو المادية او غير هذا كله ، ولهذا الألفاظ في الادب منزلة رفيعة ، وسلطان
قوي لصلتها بالعامة على تراخي السنين ، ولا متزاجها بالسنتهم ، واذا لزمنا ان نخاطب
الناس على قدر عقولهم حتى يكون لكلامنا تأثير في هذه العقول ، فيلزمنا ان
نخاطب العامة بألفاظهم التي يأنسون بها ، فالكلمة التي تأنس بها تعمل في قلبك
أو في عقلك أو في نفسك غير العمل الذي يعمله ما تستوحش منه من الكلام ،
وقد كان سيد الكتاب أي الجاحظ تغفل الى روح العامة ، فمال الى مصطلحاتهم ،
وانبسط الى تعابيرهم ، فما كان ينقبض عن استعمال ألفاظهم في اضعاف كتاباته ،
كالخطراتي والكأغاني والبانوان والقرمي والمثعب وما شا كلها ، ولقد ذهب مذهباً
أبعد ، فما كان يستنكر الحكاية عن بعض الناس بقول ملحون ، فانه يرى ان
الأعراب يفسد نوادر المولدين كما ان اللحن يفسد كلام الأعراب ، وكان يقول
اذا دخلت على هذا الأمر الذي انما أضحك بسخفه وبعض كلام العجمية التي فيها
حروف الأعراب والتخفيف والتثقيب وحولته الى صورة الفاظ الأعراب الفصحاء وأهل

المروءة والنجابة اتقلب المعنى مع انقلاب لفظه وتبدلت صورته ، وقال في مقام آخر :
وان وجدت في هذا الكتاب خطأ او كلاماً غير معرب ولفظاً معدولاً عن جهته
فاعلموا اننا تركنا ذلك لأن الإعراب يبغض هذا الباب ويخرجه عن حده ،
الا ان احكي كلاماً من كلام متعاقلي البخلاء وأشحاء العلماء ، كسهل بن
هارون وأشباهه .

علي أنني لم استشهد بكلام الجاحظ للتحريض على استعمال الألفاظ العامية او
على الخروج على قواعد الإعراب في بعض المواضع فما يجوز للجاحظ لا يجوز لي
ولا لغيري في هذا الباب فهو سيد اللغة بمخادفها ، لا تفلت منه لفظة منها ، وانما مدار
كلامي على إحياء طائفة من الألفاظ العامية التي لها اصل فصيح ، فها أنا أورد في
مقالتي هذا فريقاً من بقايا الفصح التي تدل على بعض معان اجتماعية او اقتصادية
او مادية أو نفسية ، أو غير ذلك ، وأقتصر على ذكر يسير منها لأن المقام لا يتسع
لذكرها كلها ، وقد حافظ قسم من هذه الألفاظ على معناه الأول ، فلم ينشأ
تفاوت في المعنيين : اللغوي والعامي ، وقسم منها عدل بعض التعديل ولكن النسبة
بين المعنيين مستحكة على الرغم من هذا التعديل .

* * *

من هذه الألفاظ ما يفصح عن معنى من معاني الاجتماع ، فمن الألفاظ
الدمشقية قولنا : فنكت فلانة ، بالثشديد ، فقد كانت سيدات دمشق لسنين
خلت يسهرن في دورهن ، ويجتمع بعضهن الى بعض في هذه السهرات ، فيلمبن
لعبات مختلفة كعبية التريز مثلاً او تفني احداهن اذا كانت حسنة الغناء ، أو
تضحك رفيقاتها اذا كانت خفيفة الروح ، فاذا كانت هذه الخفيفة قد أضحكت
أهل الدار حتى بالفت في اضحاكهن قالت رفيقاتها بعد انقضاء المجلس : ان
فلانة فنكت البارحة .

وفي القاموس المحيط للعلامة الفيروزآبادي ، وعليه اعتمدت في شرح بقايا الفصح :

فنكت الجارية ، مجنت ، فأت ترى ان أصل هذه المادة فصيح ، اوردها الفيروزابادي مخففة ، واستعملت في دمشق بالتشديد ، وبين المعنيين ، اللغوي والعامي نسبة واحدة ، فلا فرق بين معناها اللغوي ومعناها العامي ، ولست أعلم كلمة تعمل عملها في هذا الباب ، فانها خصبة الدلالة ، شديدة التأثير ، ولو خبرت بين استعمال هذه المادة وبين استعمال أخواتها الدائنة على معناها لما فضلت عليها واحدة منها ، لشدة حياتها ، وعظم وقعها ، وقد تخرج في بعض الأوقات من الحقيقة الى الخجاز ، فيقولون : نذك هذا الشتاء ، أي اشتد .

ومن بقايا الفصح الدائنة على نظير من انماط اللعب قولهم في دمشق : فلان لعبه جماش ، فهذه المادة كنا نستعملها في مدارسنا من ثلاثين سنة للدلالة على تيز يلاعب رفيقه فيغلظ له في الملاعبة ، فقد يركه مثلاً ، أو بعضه ، أو يبشم له عظاماً الى غير هذا من انواع اللعب الغليظ .

فن معاني هذه المادة في القاموس المحيط : الملاعبة ، فالجمش الملاعبة كالتجميش ، ورجل جماش متعرض للنساء كأنه يطلب الركب الجميش ، فلم يورد الفيروزابادي : لعباً جماشاً ، وانما أورد المصدر الثلاثي الجمش ، وبين المعنيين نسبة قوية ، فالجمش في اللغة الملاعبة ، وهذا هو معناها عند العامة ، الا ان العامة وضحت طرز هذه الملاعبة وخصصته ، فهي ملاعبة شديدة ، غليظة والأصل اللغوي ليس فيه هذا التمييز ، وفي كل حال المادة واحدة ، ولكنها عدل معناها هذا التعديل .

ومن بقايا الفصح ما يبدل على معانٍ تقسية مثل قول العامة : نفس له قلبي ، اي انبسط اليه وأنس به .

وفي القاموس المحيط : وهو ينفش اليه ، اي يميل ، فهذه مادة لم تفقد شيئاً من صلتها بأصلها اللغوي ، فما زالت على معناها الأول ، دون أن يدخل عليها شيء من التعديل .

ومن هذه الألفاظ ما يبدل على معانٍ اقتصادية مثل قول العامة : فلان بعزق

مال أيه ، او فلانة بعزت السمن في الطبخ ، وفي الأصل اللغوي : بعزق الشيء أي فرقته وبدّده .

فهذه المادة حافظت أيضاً على أصل وضعها .

ومن بقايا الفصح ما يدل على معانٍ مختلفة ، ومذاهب شتى ، مثل قولنا : فرتكها فلان ، أي أفسدها والضمير يرجع الى خطئه او الى سياسةٍ أو الى غير هذا ، وفي الأصل اللغوي : فرتك عمله أي أفسده .

فلم يتغير شيء من معنى هذه المادة في أصلها .

ومن كلام العامة في دمشق : العطعطة ، فاذا كان لوالدٍ ولد وترك هذا الولد داره في الليل أو في النهار ، وعاد في منتصف الليل مثلاً فيقول له أهله : أين كنت تعطط ، على سبيل التويخ ، ومن معاني العطعطة في اللغة حكاية صوت الحجان إذا قالوا : عيط ، عيط ، وذلك إذا غابوا قوماً .

فهنا لم تحافظ العطعطة على معناها اللغوي ، وإنما تباعد المعنيان بعض التباعد ، ولكن على الرغم من هذا التباعد قد يكون معنى أصلها العامي نظير معنى أصلها اللغوي ، ثم دخل هذا المعنى تحريف على السنين فضاع الأصل اللغوي وبقي الأصل العامي .

ومن بقايا الفصح ما يدل على لون من الألوان ، فمن كلام العامة : باخ الثوب ، وهم يريدون بذلك : ذهب بريقه ، وفي اللغة : باخت النار أي سكنت ، فالمعنيان متقاربان ، إلا ان العامة عدلت عن حقيقة معنى هذه المادة الى المجاز فيها ، فالنسبة بين ذهب بريق الثوب وبين ذهب لهب النار واحدة ، وقد وردت هذه المادة في شعر نهشل بن حري :

ويوم كان المصطلين بجره وان لم تكن نار وقوف على جمر

صبرنا لها حتى تبوخ وانما تفرج ايام الكرمية بالصبر

وقد رأيت قبل أن اختم هذا الاستشهاد ان أذكر مادة عريقة في العامية وهي :

العراضة ، والمقصود بها اجتماع فريق من العامة في يوم عرس ، أو في يوم فرح ، أو في يوم عيد ، أو في أيام انقلاب سياسي ، كالاتقلاب الذي جرى في دمشق سنة ١٩٠٨ ، ثم جولان هذه العامة في البلد ، يهزجون فيه وأمامهم وصاف يصف وهم يرددون ما يصف ، وفي أيديهم سيوف أو خناجر أو عصي أو ماشابه ذلك ، وقد كان هذا النوع من الاحتشاد فاشياً في دمشق ، ثم قلَّ وُبدِّل بنوع آخر وهو المظاهرة . ومن معاني العراضة في اللغة : الهدية وما يحمل الى الأهل وما يعرضه المائر أي يطعمه من الميرة ، وجاء في الأغاني في كلام لصاحبه على ابن حرمة ابن السري أمر له بسبعائة دينار في قضاء دينه ومائة دينار يتجهز بها ومائة دينار يعرض بها أهله ، وقد فسر صاحب الأغاني قوله : يعرض بها أهله على هذا الوجه : يهدي لهم بها هدية ، والعراضة الهدية ، قال الفرزدق يهجو هشام بن عبد الملك :
 كانت عراضتك التي عرضتنا يوم المدينة زكمة وسعلا
 فها قد ضاعت النسبة بين العراضة العامية ، بفتح العين ، وبين العراضة اللغوية بضمها ، واتسع مجال التأويل فهل أصل هذه العراضات الدمشقية اجتماع فريق من الناس لتقديم هدية في عرس أو ماشاكل ذلك ؟

* * *

هذا آخر ما أحببت أن استشهد به من بقايا الفصاح ، على كثرة ما عثرت عليه من هذه البقايا ، ورغبتي في جمع هذه المواد التنبيه على قوة حياتها ، فالكلمات على نحو ما قال « اناتول فرانس » إنما هي أفكار ، ولا سبيل الى الاصابة في الحكم الا بالتمكن من النحو والمفردات الصحيحة ، والشعب الأول في العالم هو الشعب الذي يملك أحسن الأصول في النحو وتنسيق اللفظ ، فقد يقع في أغلب الحالات ان الرجال يتناحرون بسبب كلمات لا يدركون معانيها ، ولو فهم بعضهم كلام بعض لتعاقبوا ولا شيء يعمل على رقي العنقل البشري مثل معجم يضيء ظلمة كل شيء !

سفيان مبري